العرب
الإثنين 2019/12/09
السنة 42 العدد 11553

ثورة العراق اليتيمة

د. ماجد السامرائي
كاتب عراقي

لا يمكن تصوّر أن قيم العالم وتقاليده السماوية والأرضية الخيّرة يمكن أن تزاح وتحلّ محلّها نظم شريرة أخرى تجعل من يوظفون المال المسروق والسلاح، لديهم قدرات مطلقة للتحكم بحياة الشعوب وكشعب مثل شعب العراق دون أن تكون لها نهاية بعد 16 عاماً تعادل قرنا من أزمان الدكتاتوريات. ثم تنكشف حقيقتهم وتنهار صومعات الزيف ويظهر الجلادون عراة بسكاكينهم السامة يغرزونها في أجساد الشباب. لم يتوقع أحد أن تسلّم قوى الإسلام السياسي في العراق السلطة للشعب بسهولة وهي التي انشغلت ببناء كارتلات الفساد والقتل طوال تلك الأعوام.

كانت المفاجأة أن مسؤولي أحزاب الإسلام السياسي في العراق الذين تغلّفوا بعنوانه واجهوا ثورة شباب يبحث عن وطن ولم يترددوا منذ اليوم الأول لثورتهم من تقديم شهداء وصل عددهم 500 وأكثر من 20 ألف جريح.

عناصر المفاجأة التي أحدثتها الثورة العراقية متعددة تطلّبت قدرا كبيراً من التأنّي والخبرة السياسية لمواجهتها من قبل المسؤولين عن الحكم من خارج الحدود بعد أن لم يمتلكها سياسيون محليون فاسدون قضوا سنوات الحكم الست عشرة لا رأي ولا قرار مستقل لهم. نصفها الأول انقضى في ظل احتلال عسكري أميركي مباشر. وبعد عام 2011 أصبحوا ينفّذون مشروع ولاية الفقيه لتفتيت العراق طائفيا، ونهب أمواله دون أن يضعوا للشعب أيّ حساب.

اكتشف شباب الثورة أنهم يواجهون عدوّا مكانه الحقيقي ليس المنطقة الخضراء ببغداد، وأشخاصه ليسوا هؤلاء السياسيين الحاكمين، وإنما في طهران يتمثّل بغراب زائر اسمه الجنرال قاسم سليماني يمتلك ميراثا طويلا في لوجستيات القمع وأدوات القتل، وفي تزييف الشعارات المتقنة. كان مطلوبا من العملاء والمرتزقة الصغار في بغداد منحه شخصية أسطورية لتمرير وجوده في العراق سابقاً تحت شعار حرب داعش التي تمزّقت ورقتها، واليوم ليدافع بالسلاح عن وجود أزلامه في السلطة ببغداد لأن ذهابهم ينهي تلقائيا وجود نظامه في العراق. لكنه اليوم يأتي إلى بغداد وظهره في طهران متهالك ضعيف حتى وإن كابر بالإعلام وبحرسه الثوري.

طرفا الصراع أصبحت ساحتهما مكشوفة بين محتلّ أجنبي وأعوان ينفذون مشروعه وشباب ثائر باسم الوطن. وفي التقاليد الاستراتيجية العسكرية القديمة تصبح المعركة سهلة وسريعة الإنجاز حين تنكشف ساحتها ولا تغلفها السواتر والألغام. هناك تصوّر يقول بأنه لا يوجد تكافؤ بين الشباب المنتفضين بإمكانياتهم المادية البسيطة، وبين سلطة مدجّجة بالسلاح لديها أجهزة استخبارية وأمنية، وميليشيات مسلّحة بعشرات الألوف تابعة للقوى الموالية لطهران. هذا التصوّر السطحي دفع قاسم سليماني في المرحلة الأولى إلى تبنّي فكرة التغيير السياسي لرئيس الوزراء إلى جانب تعديلات انتخابية، لكنه فوجئ باستمرار الثوار وعنادهم وصاحب ذلك شعارات مرجعية السيستاني التي كانت صالحة للتوظيف من قبل جميع الأطراف الحاكمة وجمهور الثوار.

الصدمة انتقلت من أنصاف السياسيين العراقيين الغارقين بالمليارات المسروقة من الشعب، إلى قاسم سليماني نفسه الذي تفاجئه يوميات الثورة، فكان إيعازه بتنفيذ الصفحة الثانية بجانبيها الميداني والسياسي. حيث تم تنفيذ مخطط دموي بفتح النار على الشباب المرابطين في الناصرية والنجف وكربلاء وبغداد، فكانت مجزرة الناصرية المروعة بتاريخ 28 و30 نوفمبر تلتها مجزرة النجف انتقاما من شبابها الذين أحرقوا قنصلية سليماني، وأخيراً مجزرة السنك ببغداد يوم 6 ديسمبر. جاء ذلك الترويع بعد فشل عمليات القتل الفردي والاختطافات في ردع الثوار.

لعبة سليماني بصفحتيها السياسية والعسكرية غرضها إحداث اختراق داخل صفوف المنتفضين تمهيداً لسحقها، وجاءت بعد التشاور مع خلية الأزمة التي يديرها ببغداد، وتضمّنت مداهمة المتظاهرين بالسلاح بعد فشل التظاهرات الحزبية بشعارات شيعية تظللت مرة أخرى بالسيستاني التي سارع الناطقون باسمه إلى التبرؤ منها. الصدامات العسكرية يراد لها أن تبدو وكأنها حرب شيعية – شيعية حتى إن الناطق باسم قائد للقوات المسلحة صرّح بأن ما حصل في مجزرة السنك هو شجار شخصي تطور إلى صدام عسكري، ثم وصفت من قبل الرئيس برهم صالح بعد صمت طويل بأنها "اعتداءات إجرامية"، لكن شباب ميدان التحرير فضحوا أهدافها وكشفوا المندسين إلى السنك وميدان التحرير.

ما زال الجهلة ببغداد وأولياء أمورهم بطهران يتوقعون أنه يمكن إحداث تغييرات شكلية تكون قادرة على إسكات الثوار الذين يزدادون إصراراً على رحيل الطبقة السياسية.

يوماً بعد يوم تخرج الثورة العراقية من محليّتها إلى العالم الخارجي رغم شعور المنتفضين بأن ثورتهم يتيمة لا أب ولا أم لها سوى شعب العراق.

الحرب العراقية - الإيرانية المستمرّة

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

كشف العراق إيران. ما يحصل في العراق من قمع وقتل للمتظاهرين بدم بارد على يد ميليشيات مذهبية تحرّكها طهران يؤكّد أمرين؛ أوّلهما أن مصير النظام الإيراني يتقرّر في العراق. أمّا الأمر الآخر فيتمثّل بأنّ الحرب العراقية – الإيرانية التي استمرت من 1980 إلى 1988 مستمرّة. إنّها حرب تدور داخل العراق هذه المرّة بهدف واضح. المطلوب إخضاع العراقيين، بمن في ذلك الشيعة العرب وإقناعهم، بالتي هي أحسن، بأنّ الاستعمار الإيراني قدر لا مفرّ منه من جهة، وأن "الحرس الثوري" على استعداد لاستخدام الوسائل التي استخدمها مع المواطنين الإيرانيين لإخماد الثورة الشعبية العراقية.

مضت أيّام والسكون يخيّم على إيران بعد أحداث مأساوية قتل فيها المئات. هذا لا يعني بأيّ شكل أن النار خمدت. على العكس من ذلك، لا تزال النار في إيران تحت الرماد. لكنّ النظام يعرف، في الوقت ذاته، أنّ العراق في غاية الأهمّية بالنسبة إلى مستقبله، وأن الانتصار الذي تحقّق على العراق في العام 2003، بفضل القوات الأميركية، هو الانتصار الحاسم وهو الخاتمة الحقيقية لحرب 1980 – 1988 التي انتهت بشبه انتصار عراقي بعدما قاتل العراقيون الشيعة من أجل العراق خلافا لكلّ الحسابات الإيرانية، بما في ذلك حسابات آية الله الخميني مؤسّس "الجمهورية الإسلامية" في إيران.

لم تكن الثورة الشعبية التي يشهدها العراق منذ الأول من تشرين الأول – أكتوبر الماضي سوى ثورة عراقية على النفوذ الإيراني في العراق. تشبه الثورة العراقية، إلى حدّ كبير، ثورة الشعب اللبناني الذي قام بتظاهرة الرابع عشر من مارس – آذار من العام 2005. جسّدت تلك التظاهرة ثورة للبنانيين على الوصاية السورية بعد شهر واحد بالتمام والكمال على اغتيال رفيق الحريري ورفاقه في بيروت. نجح اللبنانيون بالفعل في إجبار النظام السوري على سحب جيشه من لبنان في السادس والعشرين من نيسان – أبريل في تلك السنة. لكنّهم لم يدركوا في حينه أن النظام السوري لم يكن سوى غطاء لمخطّط إيراني كان يستهدف لبنان ولا يزال يستهدفه.

تبيّن مع مرور الوقت، استنادا إلى الادعاء العام في المحكمة الدولية الخاصة بلبنان، أن إيران تقف وراء تفجير موكب رفيق الحريري في الرابع عشر من شباط – فبراير 2005. هناك بكل بساطة لعبة لا تعرف إيران غيرها. إنها لعبة التخلص من كلّ من تعتقد أنّه يمثل عائقا في وجه مشروعها التوسّعي، وهو مشروع قائم على الهرب المستمر إلى خارج حدود إيران. يترافق ذلك، في طبيعة الحال، مع رفع شعارات المزايدة على العرب في القدس وفلسطين تحت شعاريْ "المقاومة" و"الممانعة".

اعتقدت إيران أن الاحتلال الأميركي للعراق الذي تمّ بالتنسيق معها شكّل نقطة تحوّل لا عودة عنها. ها هي تفاجأ كلّ يوم بأن العراقيين لم يرضخوا. على العكس من ذلك، إنّهم مصرّون على أن العراق هو العراق وإيران هي إيران.. هذا ما لم يستطع النظام الإيراني فهمه يوما، بما في ذلك الخميني نفسه الذي اعتقد في العام 1979 أنّ مجرّد قيام "الجمهورية الإسلامية" في إيران وإعلان نظام الوليّ الفقيه يجعلان من العراق ثمرة ناضجة يسهل قطفها إيرانيا. الأكيد أنّ ما ساعده في ذلك وجود نظام عراقي على رأسه صدام حسين لا يتمتع بكمّية كبيرة من الذكاء والفهم في كلّ ما له صلة بالقضايا الاستراتيجية المعقّدة أو التوازنات الإقليمية والدولية.

ساعد النظام العراقي وقتذاك الخميني من حيث لا يدري. فإعلان الحرب على إيران وإلغاء اتفاق الجزائر من جهة واحدة ساعد "الجمهورية الإسلامية" إلى حد كبير. ساعدها إعلان العراق الحرب، ردّا على استفزازات هي في الأصل إيرانية. عملت إيران كلّ ما تستطيع من أجل جرّ العراق إلى الحرب. حقّق الخميني هدفين. الأول استنهاض الروح الوطنية الإيرانية، والآخر إرسال الجيش الذي لم يكن له ثقة كبيرة فيه إلى الجبهات.

ما لم يدر في خلد إيران – الخميني أن الجيش العراقي سيصمد وأنّ الشيعة سيقاتلون بكلّ بسالة، خصوصا لدى اقتراب القوات الإيرانية من البصرة وتحقيقها اختراقات على جبهات عدة. ظهر في تلك المرحلة أن هناك روحا وطنيّة عراقية أيضا.

مرّة أخرى تتفاجأ إيران بالعراقيين وذلك على الرغم من أنّها أمضت ستة عشر عاما في محاولة إخضاعهم ومحو الهويّة الوطنية العراقية بطريقة ممنهجة. حصل ذلك عبر فرض رئيس الوزراء الذي تريده على العراقيين. كذلك، عملت إيران على تحويل "الحشد الشعبي" الذي ليس سوى مجموعة من الميليشيات المذهبية الموالية لها بديلا من الجيش العراقي.

يمثل رفض شعب العراق الخضوع لإيران ذروة الفشل بالنسبة إلى طهران ونظام "الجمهورية الإسلامية". ظهر بوضوح أنّ هذه الجمهورية عاجزة عن تقديم نموذج يحتذى به للعراقيين. مرّة أخرى، ليس لدى إيران ما تقدّمه إلى الآخرين خارج حدودها. ليس لديها ما تقدّمه للإيرانيين أصلا، لماذا يكون لديها ما تقدّمه للعراقيين أو للسوريين أو للبنانيين أو لليمنيين باستثناء مزيد من البؤس؟

فشلت إيران في كلّ ما قامت به منذ العام 1979. هناك نظام في أزمة مستمرّة يهرب منها باستمرار إلى خارج حدوده. كلّ ما في الأمر أن العراقيين يرفضون العيش في ظلّ الاستعمار الإيراني.

اكتشفوا أنّ ثمّة حدودا للدهاء. لجأت إيران إلى الدهاء منذ قررت الانتقام يوما من العراق بعدما اضطر الخميني إلى وقف حرب السنوات الثماني في 1988، وإنْ على مضض.

سمح الاجتياح الأميركي للعراق بمباشرة إيران سياسة ذات طابع انتقامي. عاد قادة الميليشيات التابعون لها إلى بغداد على ظهر الدبابة الأميركية. سعوا إلى تأسيس نظام جديد. سهلت إدارة جورج بوش الابن المهمّة الإيرانية إلى أبعد حدود، خصوصا عندما تشكّل المجلس الانتقالي الذي همّش السنّة العرب كلّيا وبعد اتخاذ بول بريمر (المفوض السامي الأميركي مطلق الصلاحية في العراق) قراره القاضي بحل الجيش العراقي.

تكمن مشكلة إيران في أن الانتقام لا يمكن أن يكون سياسة. كشف العراق إيران التي لا تستطيع التعايش مع جار مستقرّ هو الجار العراقي. كان لا بدّ من العمل على تغيير طبيعة العراق والقضاء نهائيا على النسيج الاجتماعي العراقي. هذا ما فشلت فيه إيران التي تحصد حاليا ما زرعته. هناك روح وطنية عراقية لا تزال حيّة ترزق. هذا ما لم تستوعبه إيران يوما. هناك فوق ذلك كلّه حنين عراقي إلى ماض كانت فيه بغداد والبصرة والموصل من بين أهمّ المدن في المنطقة كلّها... وكان العراق مزدهرا بكل ما لكلمة ازدهار من معنى.

الحرب الأهلية العراقية على الأبواب

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

في أيامنا العصيبة هذه أصبح الشر والخير بحاجة إلى تعريف وتحديد وتقنين. فممارسة العنف كأداة سياسية شر. وتمويله شر. وتصدير الفكر الظلامي الطائفي والعنصري الذي يؤجج الأحقاد بين الطوائف والشعوب شر. والقتل على الهوية شر. وسرقة المال العام شر. وتهريب السلاح والمال إلى جماعات متخلفة متمردة في دول آمنة شر أيضا. واحتلال جزر الغير شر. وتحريك الطوابير الخامسة في الدول الأخرى شر.

أما الخير فهو كل ما كان عكس ذلك. فكل رفض للتخلف والتزمّت الديني والطائفي خير. وكل رفض للقتل والتفجير والتدمير لتحقيق أهداف سياسية خير كله وفضيلة وإنسانية نبيلة.

وهنا ندخل في صلب الموضوع. فليس معقولا ولا مقبولا أن يكون رأس الولي الفقيه، وهو رجل الدين الذي وضعت الأمة عليه عمامة بيضاء، تكريما وتمييزا وتتويجا له بالحكمة والموعظة الحسنة، وأوكلت إليه هداية الناس إلى طريق الصلاح والسلام والفضيلة، جمجمة فاسدة يسكنها الظلام والحقد والحسد والخبث والفساد، فيمنح نفسه حق تكفير الآخرين ويُنصّب نفسه حاكما مطلقا يحكم على عباد الله بالموت، حرقا أو شنقا أو سحقا، أفرادا وجماعات وطوائف.

وليس مقبولا ولا معقولا أن يتمادى في تشكيل وتدريب وتمويل فرق القتل والتخريب والتدمير، ويواصل دعم الطوابير الخامسة في العراق، ويأمرها بممارسة الكذب والغدر والمراوغة والتقية والخبث السياسي لتعطيل القوانين وتمزيق الوحدة الوطنية وإعاقة تعزيز وتطوير البنى التحتية وحمل السلاح والتهديد باستعماله لتحقيق مكاسب سياسية أو مالية، واعتماد لغة الترهيب والتهديد والوعيد، وتسخير الفضائيات والإذاعات والصحف العديدة لتشويه سمعة المعارضين لنهجه العدواني، وتلطيخ كراماتهم بوحل الأكاذيب والحكايات الملفقة المختلقة، دون رادع من رب، ولا من نبي، ولا من إمام.

وردا على كل ذلك، فالخشية، كل الخشية، أن يصبح مشروعا ومعقولا ومقبولا، مئة في المئة، أن يتوقف خصومُه العراقيون التشرينيون عن الجنوح إلى السلم، وإلى القتال بالكلمات والهتافات وانتظار الفرج العصي، وهم يزفون، كل يوم وكل ساعة، كوكبة بعد كوكبة من خيرة فتيانهم وفتياتهم إلى الشهادة برصاص الغدر والخيانة والعمالة للأجنبي، وأن يصبح الانتقام والرد عليه وعلى وكلائه بعنف أشد وأكثر إيلاما، ودون حدود ولا قيود، لنقرأ على الوطن العراقي وأهله ومستقبله السلام.

فالمتابعة الدقيقة المُنصفة لتاريخ الحكم الطائفي المتزمّت في طهران، على امتداد أربعة عقود، نرى العجب العجاب. ففي كل مدينة عراقية ولبنانية وسورية وبحرينية ومصرية وحتى ليبية وأوروبية وأميركية آثارٌ دامية من أفعال هذا الولي الفقيه، ومخططات حكومته، تسيل بها أو بسببها دماء بريئة، وتُذرف دموع غزيرة من أمهات على آبائهن، ومن زوجات على أزواجهن، ومن أطفال على آبائهم أو أمهاتهم، وتُدفن جثث تحت الأنقاض، وتتعطل حياة الملايين، وتتوقف السياسة ويموت الاقتصاد وتزدهر الجريمة. أما حان الوقت لينتفض العراقيون ريش هذه الدولة المتهافتة المتساقطة المستحقة للرحيل؟

من هذه الصورة المرعبة لا يستبعد أحدٌ أن يصبح مشروعا لشبابنا المضرجين بدمائهم في بغداد والناصرية والنجف والبصرة أن ينهضوا من سلميتهم العاجزة، ويعدّوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، ليدافعوا عن وطنهم، وعن حياة شعبهم، فيمارسون القتل لوقف القتل، والتخريب لدرء التخريب، والإرهاب لدحر الإرهاب، والتآمر لمنع التآمر.

ثوار العراق، وقد خرجوا من أجل أن يموتوا أو ينتصروا، لا بد أن يفيض بهم الكيل في نهاية الصبر الطويل

إن وحوش قاسم سليماني يهددون شعبنا بمصير الشعب السوري، وبجعل هذا العراق البريء سوريا ثانية.

ولو كانوا غير ذلك، ويفهمون لغة العقل والضمير والآدمية لانتهى كل شيء بأمان وسلام وفي ساعات، ولكنهم بعد كل الدم الذي سال، ما زالوا يكابرون، ويحلمون بقدرة إيران على تركيع هذه الثورة بقوة الغش والكذب والاحتيال، وبقرقعة السلاح.

وأغلب الظن أن ثوار العراق، وقد خرجوا من أجل أن يموتوا أو ينتصروا، لا بد أن يفيض بهم الكيل في نهاية الصبر الطويل. والعين بالعين، والسن بالسن، والرصاصة بالرصاصة، والسكين بالسكين، وعلى الباغي المعتدي أن يرحل، مبكرا، أو أن يموت، وقبل فوات الأوان.